ـ الفَصْلُ الثَّالِث :

نَقْدُ الرُّوَاة

حوالى مُنتصف القرن الثانى ؛ نشطت حركة جمع الشِّعر القديم وتدوينه ؛ وكان القائمون على هذه الحركة من عُلماء اللُّغة والأدب ؛ ذوى مشارب مُتعدِّدة .

فمنهم : أبو عمرو بن العلاء ؛ أحد القُرَّاء السبعة .

ومنهم : الأصمعىُّ عبد الملك بن قُرَيْب ؛ الذى شُغِفَ بجمال اللُّغة العربيَّة والشعر العربىِّ وغاص فى دقائقهما .

ومنهم : أبو عُبَيْدَة مَعْمَر بن المُثَنَّى ؛ الذى اشتهر بحفظ الأخبار ؛ واتُّهِمَ بالشُّعوبية ؛ وقيل : إنه كان يتتبَّعُ مثالب العرب ؛ ولذلك عنى عنايةً خاصةً بنقائض الشُّعراء الأُمويين الثلاثة : جرير ؛ والفرزدق ؛ والأخطل ؛ لما احتوت عليه من سِبَابٍ شنيعٍ .

وتخصَّص فى رواية الشِّعر رجالٌ ؛ مثل خلف الأحمر ؛ الذى اتهم هو نفسه بأنه لم يكن أميناً دائماً فيما يرويه ؛ ولكن مُحَمَّد بن سلاَّم الجُمحىّ ((٢٣٢هـ)) صاحب ((طبقات الشُّعراء)) يقول عنه :

((أجمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت الشعر ؛ وأصدقه لساناً ؛ كُنَّا لا نُبالى إذا أخذنا عنه خبراً أو أنشدنا شعراً أن لا نسمعه من صاحبه .)) .

وكتاب ((طبقات الشُّعراء)) هذا ؛ هو أوَّلُ نَصٍّ يُصوِّر لنا النقد وقد استوى علماً مُتميِّزاً من عُلوم العربيَّة .

علـى أن هـذا العلـم كـان وثيـق الصِّلة بسـائر العُلُـوم التـى كانـت كلـها ناشـئة آنـذاك ؛ وتظهر هـذه الصـلة فـى مُلاحظـات نحويـَّة ولُغويـَّة وعروضـيَّة عنـى ابنُ سلاَّم بروايتها وتسجيلها ؛ كما تظهـر فـى مُقدِّمـة ((الطبقـات)) ؛ التـى تُعَـدُّ مرجعاً قيِّماً لنشأة النَّحو ؛ كما أن الكتاب كله مرجعٌ قَيِّمٌ لنشأة النَّقد ؛ والنقد فى هذه المرحلة هو عمل أولئك الرُّواة الذين عنوا بتمييز الصحيح من المنحول فيمـا يُحمل إليهم من شعر ؛ ومن أجل ذلك كان هذا النقد جُزئيًّاً محضاً ؛ يتتبَّع مـذاهب الشُّعراء فى أشعارهم ؛ ويُمَيِّز خصائص كل واحدٍ منهم في ألفاظه أو معانيه .

....

وأعُودُ فأقُول ـ وفى الإعادةِ إفادة ـ :

جدَّت فى الحياةِ الإسلاميَّة أحداثٌ وأُمُورٌ غيَّرت من النَّزعةِ الأدبيَّةِ واللُّغويَّة تغييراً عظيماً ؛ فقد أصبحت اللُّغة بالتَّعَلُّمِ لا بالطَّبعِ والسَّليقة ؛ وأصبحت العربيَّة دراسة وصناعة ؛ بعد أن كانت بالفطرةِ والسَّجِيَّة ؛ وإذا كانَ ذلكَ كذلك ؛ فالأدبُ والنقدُ ـ والحالةُ هذه ـ يُكتسبانِ اكتساباً ؛ وهكذا أصبحنا نرى نُقَّادَاً يُمكـنُ ـ بـل يجبُ ـ جعلهم فى زُمْرَةِ النُّحَاةِ واللُّغويين ؛ عنـدَ ذكـرِ هـؤلاء أو أُولئك ؛ وترتَّـب على ذلكَ أيضاً : أن نرى صُوَراً مُختلفةً ؛ ومناهجَ

مُتعدِّدةً ؛ وأساليبَ مُتباينةً فى النَّقدِ الأدبىِّ .

....

عَوْدٌ عَلَى بَدْء :

لم يكن غريباً أن يقصر هؤلاء النُّقاد الرُّواة اللغويون عنياتهم على الشُّعراء الجاهليين والإسلاميين ؛ وألاَّ ينظروا فى شىءٍ من شعر المُحدَثِين الذين نشأوا فى عصرٍ اضطربت فيه اللُّغة وشاع اللحن .

على أن عنايتهم بشعر القُدماء لم تكن راجعةً إلى أسباب لُغويَّةٍ فقط ؛ بل كان لها جانبها الذوقىُّ أيضاً .

يقُول أبو عمرو بن العلاء عن أشعار المُحدثين : إنها كنقط العروس ؛ تذهب رائحتها بعد قليل ؛ وكأبعار الظباء ؛ تَشُمُّ لها ريحاً طيِّبةً أول عهدها ؛ ثم تعود إلى رائحة الأبعار ؛ أما أشعار القُدماء فإنها كالمسِّك ؛ كُلَّما حرَّكته ازداد طِيباً .

كان الذوق غير المُعلَّل هو السمة الغالبة على هذا النقد ؛ كما كان السمة الغالبة على النقد فى الجاهليَّة ؛ وابن سلاَّم يُقرِّر ذلك صراحةً ؛ فبعد أن يُحدثنا فى مطلع كتابه أن للشعر صناعة كغيرها من الصناعات ؛ تُعين عليها كثرة الدِّراسة ؛ ويختص بها فريقٌ من النَّاس كاختصاص غيرهم بالجهبذة

بالدِّينار والدِّرهم أو البصر بغريب النخلِ أو بأنواع المتاع .

وتظهر الصبغة التأثُّريَّة فى أحكام ابن سلاَّم نفسه ؛ فهو لا يُعَلِّل استجادته لما يختار من الأبيات أو القصائد ؛ وإذا عرض للموازنة بين الشُّعراء ؛ حرص على أن يذكر ما احتج به أصحاب كل شاعر ؛ فأثبت لهؤلاء المحتجين من

الذاتيَّة ما أثبته لنفسه ؛ وتجنَّب أن يَرُدَّ خلافهم إلى مقياسٍ موضوعىٍّ عام .

وعباراته فى وصف مذاهب الشُّعراء عبارات أدبيَّة ؛ كثيراً ما تُصوِّر وقع

الشِّعر فى نفسه ؛ دُون أن تُحدِّد صفات الشعر الموضوعيَّة .

على أن كتاب ابن سلاَّم هو أوَّلُ محاولةٍ لتصنيف الشُّعراء ؛ والتصنيف عمليَّةٌ أساسيَّةٌ فى كُلِّ جهدٍ علمىٍّ .

وإذا كان ابن سلاَّم فى تقسيمه للشُّعراء إلى جاهليين وإسلاميين ؛ لم يزد على أن اتَّبع تقسيماً سار عليه الناس فى شُئُون الحياة كُلِّهَا ؛ وإذا كان ترتيبه كل قسم على طبقاتٍ بحسب منازل الشُّعراء إكثاراً وإحساناً ؛ قد التزم عُرْفَاً سار عليه الرُّواة اللغويون من قبله ؛ وأسهم فى تقليد ((الموازنة)) الذى عَطَّلَ البحث عن قيمة الشعر فى ذاته ؛ فإن إفراده ((شُعراء المراثى)) ؛ و ((شُعراء القُرى العربيَّة)) ؛ و ((شُعراء يهود)) بأقسامٍ خاصَّةٍ - وإن لم يُبَيِّن عِلَّة هذا الإفراد - ؛ يدلُّ على تنبُّهٍ مُبكِّرٍ إلى العوامل الثلاثة المُؤثِّرة فى الشعر ؛ وهى :

النفسيَّة ؛ والبيئيَّة ؛ والثقافيَّة .